الوحدة الأولى: مفهوم الإبداع الأدبي ونقده.

إن الشعر -حسب ميخائيل نعيمة- ميل جارف وحنين دائم إلى أرض لم نعرفها ولن نعرفها، هو انجذاب أبدي لمعانقة الكون بأسره، والاتحاد مع كل ما في الكون من جماد ونبات وحيوان، هو الذات الروحية، تتمدد حتى تلامس أطرافها أطراف الذات العالمية...الشعر رافق الإنسان من أول نشأته وتدرّج معه ؛ من مهد حياته حتى ساعته الحاضرة، من الهمجية إلى البرية إلى الحضارة إلى مدنية اليوم.

لأجل هذا شغلت عملية الإبداع الشعري والأدبي كثير من النقاد في الثقافتين العربية والغربية، فأقبلوا عليها بالدرس والمناقشة والتحليل، وقد يعود أيضا هذا الاهتمام إلى أن العملية الإبداعية ظاهرة خارقة ومحيّرة؛ يتفتّق عنها دائما المتميز والمختلف والمبهر، ولأنها أيضا "رؤية جديدة للكون والحياة، وإعادة تشكيل للأشياء من منظور المبدع الذي يقدمها بين يدي المتلقي قارئا عاديا كان أو ناقدا أدبيا ،وقد لا يقتصر الإبداع على المبدع فقط ؛ بل يمتد أيضا ليشمل القارئ كذلك، انطلاقا من قراءته الخاصة وفهمه المختلف للنص الأدبي وفقا لبعض المذاهب الأدبية المعاصرة"[1].

من هذا المنطلق أيضا لا يتوقف الإبداع على شخص الأديب فقط، بل يتولد أيضا عن القرّاء من خلال فهومهم المتعددة وتأويلاتهم المختلفة.

والعملية الإبداعية عملية معقدة مستعصية يعسر مقاربتها مفاهيميا ؛لأنها تتعلق بالدرجة الأولى بأغوار نفسية المبدع وانفعالاتها ونوازعها المتغيرة. رغم ذلك حاولت منذ القدم مجموعة من الدراسات مقاربة هذه الظاهرة المتفردة والتعمّق في فهمها، وقد تنوعت الحقول المعرفية لهذه الدراسات بين الأدب والفلسفة والنقد وعلم النفس وحتى الميتافيزيقا.

1 مفهوم الإبداع في اللغة.

تعني كلمة الإبداع في معجم" مقاييس اللغة" لابن فارس "صنع الشيء دون نموذج سابق، يقول "بدع" الباء والدال والعين أصلان، أحدهما ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال والآخر الانقطاع والكلال.فالأول قولهم" أبدعت الشيء قولا أو فعلا، إذا ابتدأته لا عن سابق مثال، والله بديع السماوات والأرض، وفلان بدع في الأمر، قال تعالى" ما كنت بدعا من الرسل" أي ما كنت أول"[2].

[1] : حمود حسين يونس، الإبداع الشعري وحرية الشعر، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد83، الجزء3.ص583.

[2] : ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ج1، مادة (ب د ع)، 1979، ص209.

فالإبداع من منظور ابن فارس يعني صنع الشيء دون مرجع ونموذج، وهو نتيجة يسفر عنها ذلك التعارض والانقطاع بين الواقع في حالته الخام وبين ذلك الطموح الذي يركب المبدع من أجل تحويل هذا الواقع وإخراجه من خاميته إلى حالة أكثر فنية وإبداعية[1].

ولا يختلف فهم ابن منظور عن فهم ابن فارس للإبداع، إذ يعتبره السبق والإتيان بالجديد فيقول: " بدع الشيء ، يبدعه بدعا وابتدعه، أنشأه وبدأه...والبديع والبدع الشيء الذي يكون أوّل"[2] .

2-الإبداع في التفكير النقدي العربي القديم.

من العسير الكتابة حول الإبداع الأدبي لأنه نشاط إنساني معقد وغامض ولاختلاف الرؤى حوله أيضا، وأحيانا ضبابيتها ولعدم وضوح معالم هذه الظاهرة وارتباطها بقضايا نقدية أخرى، لذلك سأحاول أن أعطي لمحة قصيرة عن الإبداع الأدبي في ثقافتنا العربية بدءا بالعصر السابق لظهور الإسلام.

تم تفسير ظاهرة الإبداع الأدبي في القديم تفسيرا غيبيا؛ إذ اعتقدت العرب في الجاهلية أن لحظات الإلهام التي تنتاب الشعراء مردّها إلى شياطين الشعر، فلكل شاعر شيطان يوحي له بجميل الشعر، حتى أنهم وضعوا أسماء لهذه الشياطين؛ فشيطان "الأعشى" ملقب بـ"مسحل" واسم شيطان الفرزدق "عمرو" واسم شيطان بشار بن برد" شقناق"[3].

ومن الأسماء الأخرى التي تركتها الذاكرة الجاهلية نجد " السعلاة صاحبة النابغة وأختها المعلاة صاحبة علقمة بن عبدة، ولحسّان بن ثابت-رضي الله عنه حديث طويل مع السعلاة ذكرته بعض المصادر.وكذا الأعشى مع شيطانه مسحل بن أثاثة "[4].

فما كنت ذا شعر ولكن حسبتني إذا مسحل يسدي لي القول أنطق.

يقول فلا أعيا بشيء يقوله كفاني لا أعيا ولا هو أخرق.

ولامرؤ القيس أيضا شيطانه"لافظ"، ولعبيد بن الأبرص صاحبه" هبيد" أما "هادر" فصاحب زياد الذبياني[5].

بقي هذا المعتقد سائدا خلال العصر، والإبداع الشعري عندهم ضل مقترنا بشيطان يلهم صاحبه، ويشير زيد القرشي في كتابه "جمهرة أشعار العرب" إلى أن شياطين الشعر

---

[1] : ينظر نورالدين حديد، مفهوم الإبداع في النقد المعاصر، ص08.

[2] : ابن منظور، لسان العرب، مادة بدع، ج8، دار صادر، بيروت، ط3، 1414، ص06.

[3] : مصباحي علي، الإبداع الفني من منظور النقاد القدامى والمحدثين، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، المجلد12، العدد2، ت2020/02/15، 859.

[4] : علي عيسى العاكوب، التفكير النقدي عند العرب، ص31.

[5] : ينظر مصباحي علي، الإبداع الفني من منظور النقاد القدامى والمحدثين، ص 860.

بقيت معتقدا سائدا حتى العصر الأموي، وبقى الإبداع الشعري في أحاديث الناس مقترنا بشيطان يلهم صاحبه[1] ويمنحه القدرة على خلق شعر متميز مدهش.

فيما بعد كانت قضية الإبداع سببا في بروز مختلف الخصومات والمنازعات بين النقاد ، وتوزعهم نتيجة ذلك مابين مؤيد ومعارض ، كان الانقسام في بعض جوانبه راجع لاختلاف النقاد حول تحديد ماهية الإبداع الشعري وبيان آلياته وطرائقه وأساليبه، وتبيانهم مدى الحرية الممنوحة للشاعر في إبداعه، وهذه الحرية بدورها أدت إلى الخصومة بين القدماء والمحدثين لفترة زمنية طويلة[2].

فاللغويون والرواة ألزموا الشعراء بتتبع سنن الأقدمين في التعبير، وتمثل نماذجهم وعدم الخروج عليها.

أما النقاد فكانت لهم رؤية أخرى حول الإبداع الأدبي ،وقد اخترنا من بين هؤلاء الجاحظ وابن قتيبة إضافة إلى تصورات أخرى للعملية الإبداعية كـ:

أ-فكرة تنقيح الشعر وتحكيكه:

تمثل هذه الفكرة تصورا للعملية الإبداعية عند بعض الشعراء، فالشعر عندهم ليس تدفقا تلقائيا يستسلم فيه الشاعر لقريحته، بل هو ضرب من المعاناة والمكابدة والطلب الملح، ومحاولة التنقيح المستمر من الشاعر لما قاله في المرة الأولى، يتأمله فيسقط منه ويضيف حتى يستقيم له، ومن أشهر المنتمين إلى هذا المذهب زهير بن أبي سلمى، وكعب بن زهير والحطيئة[3].

ب-الإبداع عند الجاحظ: (776م.868م)

تحرر الإبداع فيما بعد من التفسير الميتافيزيقي، وأصبح ينظر إليه من منظور جمالي، فها هو الجاحظ يعرف الشعر بالتركيز على قيمته الفنية أكثر من المعنوية، إذ اعتبر المعاني الغُفل مطروحة في الطريق يدركها الجميع، لكن التميّز والإبداع عند الشاعر في الطريقة التي يبلور بها فكرته، وقد اعتبر" الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير[4]". فالشاعر مثل أصحاب هذه الصناعات يستخدمون مادة أولية خاما ويبرعون في تشكيلها ورسمها، حتى تتضح وتتخلق بين أيديهم خلقا جديدا، قادرا على تحقيق البهجة والمتعة.

---

[1] : : ينظر: علي عيسى العاكوب، التفكير النقدي عند العرب، ص31.
[2]. حمود حسين يونس، الإبداع الشعري وحرية الشاعر، ص583.
[3] : علي عيسى العاكوب، التفكير النقدي عند العرب، ص35.
[4] : المرجع نفسه ، ص138.

وقد اعتبر الجاحظ الشعر حظا يقسمه الله سبحانه وتعالى بين الناس ،وغريزة يغرزها فيهم، وهو بهذا ينافي ما ذهب إليه ابن سلام الجمحي؛ الذي ردّ الإبداع الشعري إلى عوامل خارجية مثل كثرة الحروب، أو خصوبة المكان وطلب الغذاء والسكن والاستقرار.

ويؤكد على أن الشعر هبة وقسمة من الله سبحانه وتعالى يهبها لمن يشاء، ويستبعد ارتباط الشاعر بعوامل تقع خارج النفس.[1]

ج-الإبداع عند ابن قتيبة:(828م-889م)

يكون الإبداع الشعري عند ابن قتيبة بطريقتين: الطبع و التكلف. فشعر المطبوعين هو ابن اليوم أو اليومين أو الأسبوع، أما شعر المتكلفين فابن الأشهر أو الحول الكامل، فالشعراء المتكلفون لا يرضون بما تقذفه عليهم قرائحهم، بل يسعون إلى إزالة ما فيه من زوائد وشوائب، وذلك بطول التفتيش وإعمال النظر فيه.

وقد اعتبر ابن قتيبة أن التكلف حال من المعاناة والصعوبة في العملية الإبداعية عند بعض الشعراء، وهي حال تترك آثارا شديدة الوضوح في الأشعار وقد تكون آثارا سيئة [2] .

د-الإبداع عند ابن رشيق القيرواني:

الإبداع عند ابن رشيق يعني" إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله"[3] . أي توليد معنى جيّد لم يسبق إليه الشاعر ولم يشع في الساحة الأدبية من قبل ويكون ذلك في قالب لفظي مختلف عن السائد المعهود.

ويقترب "الاختراع" من مصطلح الإبداع ،والاختراع عنده يعني" ابتداء الشيء والسبق إليه والاشتهار به...والاختراع هو خلق المعاني التي لم يُسبق إليها والإتيان بما لم يكن منها قط"[4] .

نلاحظ أن ابن رشيق خص المعاني بالاختراع، فنقول شاعر مخترع إذا كان سبّاقا إلى معنى لم يسبقه أحد إليه، إذا كان هو الطارق الأول لمعنى لم يوجد من قبل.

ويتحدث ابن رشيق أيضا عن "التوليد" وهو مصطلح يقترب من الإبداع ويختلف عنه في بعض جزئياته، ويعني استخراج معنى جديد، ولكن النسج يكون على منوال معنى موجود"[1] . فالتوليد يعني الإتيان بمعنى جديد لكن من معنى موجود سبقه إليه الآخرون.

---

[1] : علي عيسى العاكوب، التفكير النقدي عند العرب ، ص140.

[2] : ينظر، المرجع نفسه، ص ص 172،173.

[3] : الحسن ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ج1، ص265.

[4] : فريدة مقلاتي، عملية الإبداع في الشعر عند ابن رشيق القيرواني، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع5، ديسمبر2010، جامعة خنشلة، ص65.

على خلاف ما يقول بعض الدارسين أن الإبداع ظاهرة متعلقة بالأديب فقط، يرى ابن رشيق أن الإبداع ظاهرة تشترك و تتداخل في حصولها مجموعة من العوامل المتعلقة بالأديب والعوامل الخارجية، فيقول: "العمل الأدبي ليس من إبداع الفرد وحده ولا من إبداع العوامل الخارجية وحدها...إنما تسهم هذه العوامل بطريقة أو بأخرى في نشوئه، وإن كان ميلاده يتم على مستوى ذات المبدع المتفاعل مع مجمل الظروف المحيطة بهذا المبدع"[2].

3-الإبداع عند المحدثين:

أ- عند بسام قطوس

اختلفت الرؤية للإبداع الشعري في العصر الحديث، واختلفت الفهوم حول هذه الظاهرة، فهاهو بسام قطوس يعتبر الإبداع "خروجا عن المعيار وليس التزاما به، والمعيار بما هو صفة لصيقة للمرجعية أو المحافظة ليس في الشعر والنقد وحسب، بل في الثقافة عموما، لم يكن بمنأى عن التجاوز، ولقد حدث ذلك في الاتجاهات الشعرية منذ العصر العباسي على أيدي مجموعة من الشعراء من أمثال أبي العتاهية وأبي نواس وبشار بن برد وابن الرومي[3]...

الإبداع هو جرأة ترك السنن المتوارث عليها، وكسر النماذج الشعرية المألوفة التي وضعها الأقدمون، أو هو انتفاضة على كل القيود التي كبّل بها الأقدمون أيدي الشعراء، ولا يقتصر على عصرنا فقط؛ وإنما هو موجود عبر كل الأزمنة، فمنذ العصر العباسي حدثت ثورات إبداعية كبرى أوقدت ثورات نقدية كبرى أيضا.

ب- عند أدونيس:

يرفض أدونيس وضع قاعدة لكتابة الإبداع الشعري لأنها تعد عائقا وتكبّل حرية المبدع، لذلك فهو يدعو إلى تجاوز المعايير التي وضعها القدامى والتحرر من النمطية السائدة، وابتكار طرق مختلفة عن الطرق المعهودة في التعبير، يقول: "أكدت على أن الشعر هو تخليص الكتابة من المكتوب/المؤسسة/القاعدة ، من التقعيدية والمرجعية...وأكدت أن الشعر لا ينفي الشعر ولا الصرامة الجمالية الملازمة لكتابة الشعر، وإنما ينفي القاعدة والنمطية...وأكدت أن الإبداع نقيض التكرارية والتراكمية، لذلك لا يمكن تقعيده" [4].

---

[1] : المرجع نفسه، ص66.

[2] : ينظر: المرجع نفسه،ص ص66، 67.

[3] : بسام قطوش، الإبداع الشعري وكسر المعيار، مجلة النشر العلمي، جامعة الكويت، 2005، ص13.

[4] سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، منشورات الاختلاف، الجزائرن ط1، 2008، ص477.